من البذور البلاغية في حقل الرواة واللغويين والنحويين

الدكتور الوصيف هلال الوصف

اللغة هي المادة البكر للتركيب البلاغي . وهي في ذلك كالألوان للرسم وكالرخام للنحت ، وكالصناجة للموسيقى .

ذلك أن مايتردد في خوافي النفس من أحاسيس ، وما يعتلج في مسارب الفؤاد من خواطر ، وما يتزاحم في آفاق الذهن من شوارد ، وما يحلق في سماء الإلهام من فلائد ، لاسبيل إلى تمثل كل ذلك ، والوقوف على كنوزه وأسراره إلا أن يسكن في داخـــل ، ويستكن في مطاوى وأعماق التراكيب .

وقيمة الكلمة المفردة جودة ورداءة ، حسنا وقبحا ، إنما تنبع من المجال الذى تتحرك فيه ، والسياق الذى سيقت من خلاله .

ومن ثم فإن ثورة علماء اللغة إنما كانت تنقيحا للشعر ولغته ، وضبطا لحركة إعرابه ، وإخضاعا لشكله وصياغته ، وتصفية له من شوائب اللحن والخطأ ، وكشف لمناحي الجمال فيه .

ولا يغيب أنهم في ذلك إنما استمدوا معاييرهم ، ومقاييسهم من استقرائهم لضخامة الموروث من النصوص الذى عكف على حفظها الرواة

حين رادوا البوادى ، وشافهوا الأعراب ، وعايشوهم ، وأخذوا عنهم ، وسجلوا كل ما سمعوه — وليس مما يخفى أن ما لعلماء اللغة الذين انقطعوا لدراسة النصوص من ملاحظات ، ومآخذ على الشعر والشعراء لم تكن لتتوقف عند حدمعين ، وهو تحقيق المسائل اللغوية ، وموازنتها لاستنباط القوانين ، والوصول إلى المقاييس . إذ أنه مع التسليم بأن خلو الكلام من خسيسه اللحن ضرورة أساسية للجمال الذى يشرق به الأسلوب ، وتتألق به الصياغة فلابد من دراسة ماهو من مستتبعات التراكيب .

ذلك أن الوقوف أمام نسيج الكلمة ومامنه تنتظم ، وتحليل صيغتها ، وبيان ما أضيف إليها مما تكون قد تمددت معه وتمطت ، أو أخذ منها مما تكون معه قد ضاقت وانكمشت . مما سهل على اللغويين ضبطها ، فإذا أضفنا إلى ذلك زحزحة بعض حروف الكلمة ، وتحويرها ، وتبديلها وتقديمها ، ونحتها مما هو أداة فنية تتخذها اللغة طريقا إلى حوك مفرداتها عرفنا إلى أى مدى يمكن استثمار تلك التقلبات الصوتية بما يلحقها من وسائل مختلفة فى إبداع صيغ فنيـة أكبر ، وأوسع ، وأعمق ، وأغزر .

إذ أنها تستعين حين تنتظم تلك اللآلىء المفرقة فى تراكيب بما بينها من حلاوة جرس ، وعذوبة لفظ ، وحسن إيقاع ، وجمال موافقة ، وجلال ملاءمة . مما يفرض اختيارا معينا لحركة إعرابية لايحمل تجاوزها أو تخطيها إلى غيرها . مما هو لاصق تمام اللصوق بالإبداع الفنى فى الصور ، والأخيلة والمعانى ، والخواطر والإيجاز ، والإطناب ، والذكر ، والحذف ، وأدوات

النداء ، والتقديم ، والتأخير ، وأسرار الوصل ، والفصل ، وحروف المعانى والتعبير باسم الإشارة ، وبيان مداه قربا ، ووسطا ، وبعدا ، والتعريف ، والتنكير ، وغير ذلك من عيون مباحث النحو التى تتصل بالدراسة البلاغية والجمالية مما يقوم الفن ويزنه .

إن ألفاظ اللغة ومفرداتها — إنما تمثل جانبا صامتا لانبض فيه ، ولا صوت له . إذ أنها كمفردات لاتتجاوز دلالتها الفردية من بيان معنى اللفظ ، وما يوحى به بصورته التى هو عليها إلى شىء آخر سوى ذلك . ولكنها حين تنظم مع غيرها ، وترتب مع نظرائها ترتيبا فنيا معينا . فإن الحياة تتدفق فى قوة ، وتنبعث فى حرارة من خلال تلك التراكيب التى جاءت كثمرة ناضجة لإخضاع الكلمات لنظام معين فى ترتيبها ، وبنائها . وعندئذ تكون قد أبرزت خبىء الفكر ، وعبرت عن المضمر الذى يثب فى الذهن ، ويتردد فيه فى قوة ، وقدرة ، وإبانة ، وإيضاح . فضلا عما يوحى به هذا البناء اللغوى من ظلال ، ومن شيات ، وغمات ، وما يثيره فى النفس من صور ، وأخيلة ، ورؤى كلها تستولى على قلب السامع ، وتستبد بمشاعره ، وتضيف إليه رصيدا ضخما من المعطيات ما كان ليكون لولا ماتبعث به تلك المدلولات من ظلال المعانى .

وليس معنى هذا أن المرونة مفقودة فى ترتيب كلمات اللغة ، ونظمها فى الجملة . إن المرونة قائمة وكائنة ولكنها مرونة منضبطة ، ومحكومة بنظام الكلام ، وقوانين الأسلوب . ومن ثم تأتى المفاضلة بين أسلوب وأسلوب وكلام وكلام مع أن أصول الفكرة متلبسة بالجميع ، وإن اختلفت العناصر

من جهة النظم والتشكيل . فهناك من المواقف مايفرض نمطا معينا من الفن القولى لاينهض بأدائها غيره ، ولا يحسن بها سواه ، ومن أجل ذلك فأنت قد تدفع بالمسند إلى موقع متقدم ، أو متأخر من الجملة ، وتنقله من مكان إلى مكان آخر ومع أنه يظل مسندا فى كلّ . إلا أن الكلام تصير له صورة وهيئة يرقى بها ويحسن ، ويرتفع ويعلو ما كانت لتكون له لو بقى حيث هو لم يتقدم أو يتأخر .

وأنت قد تسبق الفعل بالنفى ، وقد تقدم الفعل على النفى ، ولا يمكن أن يكون معنى هذا هو معنى ذلك بالتحديد . بل إن لهذا صورة تختلف عن ذاك وهكذا[1] .

فانتقاء الكلمات ، وأنواعها ، وصورها ، ووصلها بأخواتها فى التركيب وملاحظة مابينها وبين جاراتها من علائق ، ووضعها الموضع الأمثل الذى لايجب أن تتأخر عنه أو أن تتقدم ، مما يجعل الحياة تدب فى الأساليب ، ومما يبعث فيها الدفء ، والغزارة ، والعمق .

ومن هنا يرى الإمام عبد القاهر أن الفروق فى طرق نظم الكلام من الكثرة بحيث يجب أن تعبأ كل الطاقات ، وتشحذ كل الهمم من أجل البحث عنها ، والوصول إلى خوافيها وغوامضها ، ومعرفة دقائقها وأسرارها .

---

(١) ينظر كتاب دلالات التراكيب للأستاذ الدكتور / محمد حسين أبو موسى ص ٢١٢،١٠ ومابعدها طبعة أولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

«وذلك أنا لانعلم شيئا يتبعه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق .... فيعرف لكل ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغى له الخ »(١) .

فالكشف عن معانى النحو يتخذه عبد القاهر سبيلا إلى دراسة خصائص الأساليب ، وأحوال التراكيب .

فخصائص النظم هى فى الواقع جزء من معانى النحو التى هى وسيلة لنقل الأحاسيس واستثمار الألفاظ بطاقاتها غير المحدودة .

فليست وظيفة النحو تتوقف لتبحث فى ضبط أواخر الكلمات ، ولا أن تقيم رصيدا ضخما من القواعد الجافة اليابسة . وإنما تتجاوز ذلك وتتخطاه للكشف عن العلاقات القائمة بين الكلام ، وارتباط بعضه ببعض ، ومحاولة إبداع نظرية لغوية فى فهم الأسلوب واستكشاف مافيه من جوانب مثمرة وخصبة . وبذلك يكون النحو مؤثرا جادا وقويا فى إيجاد نسق تعبيرى لايجمد عند صحة وسلامة التعبير ، وإنما يحقق المزية والفضيلة بجانب الصحة والسلامة مما يعتبر فنا جماليا وبلاغيا .

ولذلك فإننا لاندهش حين نجد كثيرا من البذور البلاغية قد نبتت فى حقل الرواة واللغويين والنحويين .

---

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص ٥٥، ٥٦ طبعة المنار سنة ١٩٦١

فابن عباس يُسأل عن أشعر الناس . فيتوجه بالسؤال إلى أبى الأسود الدؤلى ويقول له : أخبره ياأبا الأسود فإذا به يقول الذى يقول[١] :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن الذائع المشهور أن التشبيه فى هـذا البيت قد دارت حوله دراسات ، وأن عبد القاهر ، قد وقف أمامه وأطال الوقفة . وغير خاف أن الحالة النفسية للمنشىء كانت تتراءى من وراء التشبيه بالليل ، وإيثاره على النهار وأن الدلالة الإيحائية للصورة إنما كانت تدل على هول الموقف بالنسبة للشاعر المرتجف المذعور .

فالنابغة لن يمكنه الإفلات من قبضة النعمان أو الهروب . وكيف يستطيع والحمام الراصد يتعقبه أينما حل وأينما سار ؟ ويد الممدوح سوف تمتد إليه ، وتناله فى أى مكان من الأرض بماله من سلطان يعم الدنيا ويملؤها كما يعمها ظلام الليل .

إذن لن يستطيع الشاعر أن يذهب إلى أى مكان لا يصل إليه الملك . ولن يقوم لفظ غير الليل على يسره ، وبساطته بتصوير سطوة النعمان المرهوب والعجز عن الفرار منه من جانب . وتصوير امتلاء قلب الشاعر بالخوف ، والرعب ، والظلمة لغضب صاحبه عليه من جانب آخر .

---

(١) الأغانى ١١ / ٥ طبعة الدار التونسية للنشر تحقيق لجنة من الأدباء .

ولقد أدار عبد القاهر[1] حول الصورة فى البيت مناقشة لغوية حيثما أدرك بحسه اللغوى استحالة ان يكون المعنى على حد « إن فررت أظلنى الليل » أو :

« إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى وإن خلت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد » .

مما يحول فيه التمثيل إلى استعارة .

لماذا ؟

لأننا حين نرتضى المثال الأول ، ونقبل به ، فإننا فى نفس اللحظة نذهب بمقصود الشاعر ، ونضيع الفكرة الأساسية التى جاء بها البيت من تصوير سطوة الممدوح ؛ وأنه لايفوته هارب ومن ثم . كان تشبيهه بالليل الذى يعم الأرض ، ويصل إلى كل مكان . وأقصى مايمكن أن تدل عليه السورة حينئذ أن تبين أن الشاعر حين يهرب من الممدوح يكون فى تيه لايجد فيه هدى ، وفى ظلمة لا يستطيع الخلاص منها .

إذ أن الفكرة الجديدة التى تقدمها الصياغة بعد التبديل ، والتحويل ستأتى على هذا النحو « إذا هربت منك استحالت الحياة كلها على ظلاما وضللت طريقى كمن يضرب فى أطناب ظلمة حالكة » وهذا شىء خارج عن الغرض لم يقصد إليه الشاعر ، ولم يضعه فى تقديره ، ولا فى حسابه ،

---

(١) انظر أسرار البلاغة لعبد القاهر ج ٢ ص ٩٠ وما بعدها تحقيق خفاجى .

لأنه سيؤدى إلى عدم الإحساس بسطوة النعمان ، وعنفه وجبروته وسلطانه وقوة أخذه ، وقدرته على الوصول إلى أى مكان من الأرض يريد أن يصل إليه بنفسه ، أو برجاله . بعد أن ضاعت مع تحويل التمثيل إلى استعارة كل الامكانات اللغوية التى توصل إلى ذلك .

ومن ثم . فإن السواد لا يحقق الغرض ، ومن الخطأ اعتباره الخاصية المطلوبة

وفى المثال الثانى : « إن فررت منك وجدت ليلا يدركنى وإن خلت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد »

لا نقبل بهذه الاستعارة المحولة عن التمثيل وإن كان لا يوجد ما يمنع من أن الشاعر واقع فيها تحت غضب الملك .

لماذا ؟

لأن هناك حداً يمكن معه تحويل التشبيه إلى استعارة وهذا حين يكون الشبه ظاهرا . وذلك كمن قصد بالتشبيه السواد والظلمة مثل قول ابن طباطبا :

* بعثت معى قطعا من الليل مظلما *

يقصد رنجيا أرسله معه المخاطب عند انصرافه من بيته ومنزله فإذا كان الشبه خفيا فإنه لا يحمل ، ولا يصح كما فى قول النابغة :

* فإنك كالليل الذى هو مدركى *

على أنه لا بد من رصد القيم الجمالية النابعة من دلالات الألفاظ ، ومن الموقف الشعرى ، وربطها بالأحوال والمقامات ، ووصلها بالذوق العام ،

وموافقتها للطبع السليم ، وانسجامها مع ما يسمح به العرف ، ويرتضيه ويقبل به .

وخلاف الجميل أن تقول ما لا تقبل به الطباع ، وأن تسلك طريقة مجهولة فى الإفضاء بما فى نفسك ، وأن تعاكس العرف فيما توافق عليه فتجعل من الممدوح (ليلا) هكذا.

ولذلك كان الشاعر دقيقا فى اختياره لكلمة (الليل) وإيثارها على كلمة (النهار) مع أن كلا منهما يحمل معنى العموم والانتشار . فالنهار قسيم الليل فى هذا . وصنوه ، ومثاله .

وما يصل إليه الليل يصل إليه النهار ، وما من موضع فى الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما . ولما كان المقام مقام خوف ، ورهبة ، وغضب وسخط كان المقام لليل لا للنهار إذ أن الليل هو الذى يشعرك بهذا وليس ما سواه (فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روى فى نفسه ، فلما علم أن حالة إدراكه - وقد هرب منه - حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى (١)

ويقوى هذا اختيار النسق اللغوى المناسب الموقف المناسب ما ذكره عبد القاهر من قول عباس بن الأحنف :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد

فليس يخفى أنه يقصد هنا ما يقصده النابغة من تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان .

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر ٢/ ٢٠٩

ولكن الشأن فى النعمة أن تفرح وتبهج ، وأن تسعد وتؤنس ، لذا مثل لها بما هو من مواطنها . وكان اختياره للشمس اختيار الشيء لما هو به أشبه . ولو أنه عبر (بالليل) بدل (الشمس) لكان كمن يضع الملح حيث يجب أن يوضع السكر . وبذلك يكون الخطأ فاحشا . فالليل : وحشة ورهبة . والنعمة : متعة وبهجة فكيف يجتمعان ؟

ويرتبط عمق الأداء بأداة التشبيه الداخلة على الليل ارتباطا مباشرا . ويظهر أثر ذلك ظهورا واضحا فى دخولها على المشبه به . وكما لم يصح تحويل التمثيل فى بيت النابغة :

* فإنك كالليل الذى هو مدركى *

إلى استعارة . فإنه يمتنع جعله تشبيها بليغا . فتحذف أداته ولا تنويها .

إذ أن التشبيه البليغ يقوم على هذا الأساس . فإذا طويت الأداة ، وغابت ، ولم تذكر ، وجعل مجرور الكاف (الليل) خبرا فلا بد من تقديرها ، واعتبارها . وكأنها موجودة وتقديرها يباعد بين التشبيه الصريح الموجود فى قول النابغة وبين التشبيه البليغ .

فتجريد (الليل) لوصف النعمان بالسخط مستكره ، لأن ذلك يوقع الخلط بين الأغراض فلا يجمل أن يقال : أنت فى حال السخط ليل ، وفى حال الرضى نهار .

---

(١) أسرار البلاغة ٢/١١٠

إذ أن التعبير على هذا النحو يشعر بالهجاء من حيث يراد غير ذلك ؛ وإنما الواجب أن يقال فى مثل هذا : النهار ليل على من يغضب عليه ، والليل نهار على من يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات وليك نهار كلها .

ولا تكاد تجد أحدا يقول : « أنت ليل » على معنى أن سخطك تظلم به الدنيا ؛ لأن هذه العبارة بالذم ، وبالوصف بالظلمه ، وسواد الجلد ، وتجهم الوجه أخص[1] .

ومن خلال هذه المناقشة اللغوية التى أدارها عبد القاهر حول بيت النابغة . رصدنا كيف استثمر إمكانات النحو الجمالية ، وكيف وظفها فى تحليله للصورة البلاغية ، مستعينا بذخيرة حية من التراث الثقافى، واللغوى، مؤكدا بذلك أن اللغة أوثق اتصالا بالتراكيب الفنية ، وأن النحو أكثر ارتباطا بالقيم الجمالية والبلاغيه منه بالقواعد الجافة الجامدة ، وبذلك يتأكد لنا ما سبق أن ألمحنا إليه من كلامه حين بين أن الحسن والقبح ، والجودة والرداءة ، والصواب والخطأ كل ذلك راجع إلى النظم الذى هو من معانى النحو (فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا ،وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم — إلا وهو معنى من معانى النحو — قد أصيب به موضعه ، ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد

---

(١) أسرار البلاغة ج ٢ ص ١١٠

مرجع تلك الصحة ـ وذلك الفساد وتلك المزية ، وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل تحت أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه)[١] .

بقى أن ننبه إلى أن معانى النحو عند عبدالقاهر تتجاوز قوانين الإعراب، والمعايير اليابسة ، والمنطقية الصارمة ، إلى ما يكون فى الصورة من صحة المعنى ودقته ، وجمال اللفظ وعذوبته ، وتآخى الأفكار ، وترتيب المعانى ، التى تتحقق من الألوان النفيسة الناشئة من ارتباط الكلام بعضه ببعض ، ومن التفنن فى الأداء الفنى والجمالى وأنت حين تتابع ما علق به عبد القاهر فى دلائل الاعجاز على قول ابن المعتز :

وإنى على إشفاق عينى من العدا لتجمح منى نظرة ثم أطرق

« فترى أن هذه الطلاوة وهذا الظرف إنما هو لأن جعل النظر يجمح، وليس هو لذلك ، بل لأنه قال فى أول البيت (وإنى) حتى دخل اللام فى قوله : (لتجمح) ثم قوله : (منى) ثم لأن قال : (نظره) ولم يقل النظر مثلا ثم لمكان (ثم) فى قوله : (ثم أطرق) . . . وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف . وهى اعتراضه بين اسم إن وخبرها بقوله : (على إشفاق عينى من العدى »[٢].

وأنت تستطيع أن تطالع الجمال الذى انبث فى البيت من خلال هذا التحليل الكاشف الذى أضاء به الإمام جوانب الصورة ، وأراك إياها

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٦

(٢) دلائل الاعجاز ص ٦٨

فاتنة ساحرة بعد أن وزع الحسن على كل عنصر من عناصرها ، فبدا متفاعلا مع ما قبله وما بعده . آخذا منه ومضيفا إليه . فى تساند ، وتعاضد ، وتواصل ، وتعاطف . ومن ثم لمست بنفسك أن الجمال الذى يروعك ، ويصيبك بالدهش ليس للالفاظ مفرقة ، أو مجمعة وإنما لها كلها متناصرة متلاحمة متفاعلة فى أداء المعنى . وبذلك أخذت كل حظها فى البلوغ بالصورة إلى تلك الذروة العاليه من الرفعة والارتقاء والجمال بعد أن شحنها السياق بالجياش من العواطف الإنسانية وبالفائر من المشاعر الحية ، وبالمضىء من الصور الذهنية ، فضلا عما هو فيها من معنى عقلى مجرد .

وهذا هو معنى النحو الذى أرجع الإمام إليه حسن النظم .

وبذلك تستطيع أيضا أن ترد على من اتهم عبد القاهر (بأنه فى هذه القضية - بقصد النظم - أسير النحو يقيس الشعر والكلام بمقاييسه ، ويقدره على معاييره ، ومن مقتضاه : أن لا يتعاطى الشاعر ما يتعاطاه على غير ما تستوجبه معانى النحو ، وقوانينه . من تقديم وتأخير ، وحذف وإضمار ، وما إليها وإلا وسم شعره بالتعقيد ، ووصف نظمه بالخلل ، وباء كلامه بسوء التأليف ...

فما بعده عبد القاهر وغيره من البلاغيين بناه على معانى النحو فسادا فى التآليف ، وخللا فى النظم ليس إلا صورة التركيب توخاها الشاعر فى اللغة ، والنحو بأحكامه أعجز من أن يستوعب أسرار اللغة الشعرية ووجوهها التى يدق فيها النظر .. والفاعلية ، والمفعولية ، والابتداء ، والخبرية وغيرها لا تغنى وحدها فى بيان الآثار الشعرية لمواقع الألفاظ)[1] .

---

(١) التركيب اللغوى للادب د/ لطفى عبد البديع ص٨/١٠ بتصرف طبعة أولى ١٩٧٠

والحق الذى لا معدى عنه ، أن هذا الكلام فيه كثير من التجنى وفيه تضييق لدائرة النحو وحصرها فى وظيفة واحدة وهى ضبط أواخر الكلمات مع أن هذا ليس سوى معنى واحد مما يشير إليه النحو من معان وهى كثيرة على رأسها أنه يبحث فى مجموعة الروابط والعلائق التى تنشؤها اللغة بين الأشياء ؛ ومن ثم يكون التعليل للحسن وللقبح ، المتصلين كل الاتصال بطريقة تشكيل العبارة ، واستثمار كل الأدوات اللغوية فى بنائها ، ونظمها فى نسق تعبيرى يقيم الروابط بين الأشياء وبذلك يتاح للمنشىء أن يصنع بالألفاظ ما يصنع الرسام بالألوان ، والموسيقى بالأصوات مما يمس الناحية الجمالية التى تنشؤها الصياغة ، وتكون بمثابة وسيلة إضافية تكتسبها اللغة .

هذا وحين أثار مؤلف إحياء النحو العواصف فى وجه النحاة وخاصة (سيبويه) واتهمهم بأنهم شغلوا بالمباحث اللفظية ، وأعرضوا عن سر العربية، وما فيها من ذوق ، تصدى له الأستاذ الكبير محمد أحمد عرفه فى مؤلفه الجهير - النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة - ولقد تمكن بضربة واحدة من معوله الحاسم أن يبدد ما أثاره الرجل من شبهات ، وأن يثبت بالدليل القاطع ، وبالحجة الدامغة ، وبالمثال الناطق ، وبالنموذج التطبيقى الواعى : أن النحاة شغلوا بأسرار العربية ، وأنهم تجاوزوا بحث الإعراب (وتعدوه إلى كثير جدا مما يعرض للكلمة فى التركيب ، ومن كل مايعرض للجمل فى التراكيب ، وأن الكتاب لسيبويه بلغ فى ذلك المبالغ التى لم يبلغها أحد فى بيان سر العربيه وخواص التراكيب)[1] .

---

(١) النحو والنحاة للاستاذ محمد أحمد عرفه مطبعة السعادة ص ٣٤

وعلى هذا الأساس فى فهم النحو نصل إلى نتيجة ندرك من خلالها أن هذا العلم قد رد للغة اعتبارها ، وأنزلها المنزل اللائق بها ، وأنه مؤثر قوى فى الإفصاح عن المشاعر الدفينة التى تحتاج إلى إفصاح ، وأنه مستخرج للحبيس مما هو فى باطن المتكلم من إحساس ، وفكر ، وخيال وأن ما أثير من دراسة حول بيت النابغه السابق .

* فإنك كالليل الذى هو مدركى *

إنما كان يتغيا الكشف عن القيم التعبيرية ، وأثرها من الأداء البيانى وكيف تمثل نسقا فنيا كاملا .

وإذا كان أبو الأسود الدؤلى وهو النحوى الفاهم المتذوق قد آثر الشاعر الذى أبدع هذا البيت ، وفضله على غيره .. فإن هذا لا يعنى أن المناقشة اللغوية التى أدارها عبد القاهر حوله - كانت قد طافت على هذا النحو الذى أفضنا فيه بخياله ، وبذهنه ، ولكن النابغة على كل حال قد نال الاستحسان ، واستحق الإعجاب عند هذا العلامة الكبير لخصائص تفوق بها فى شعره ، وتميز بسببها على ما سواه . وقد بدت واضحة فى تأنقه فى اختيار اللفظ ، ثم فى قدرته على توظيفه فى خلق أنساق تعبيرية ، بديعة التنسيق ، قوية التأثير - متلاحمة البناء - استطاعت أن تزخر بالعميق من العواطف ، وبالجياش من المشاعر وبالزاخر من الأفكار ، وبالجليل من المعانى ، وأن تحسن السفارة بين المبدع والمتلقى حين نقلت إليه مابنفسه ، وصورته تصويرا أخاذا ، وعرضته عرضا قويا مؤثرا . ولذا ينقل ابن سلام حجة من احتج للنابغة فى تقديمه على غيره بأنه (كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ،

وأجزلهم بيتا)[1] .

ولا يتوقف الاستحسان لشعر النابغة عند هذا الحد بل إننا نبصر حمادا الراوية ، وهو يتعقب شعر الرجل ، ويتتبع عناصره ، وأدواته ، ويقارنه بغيره فيفصله على من سواه .

ومن الطبيعى أن يكون قد توقف أمام الخصائص الفنية الخاصة بشعر الشاعر التى امتاز بسببها وتفوق ، والتى منحت شعره الذيوع والخلود .

ولقد أرجع سبب التفوق إلى تلك الوجازة التى بلغت حد الإعجاز إذ أنه أقدر من سواه على تخليص المعانى ، وتلخيصها ، وقوة التعبير عنها ، مما يزيد فى دلالة شعره من طريق الإيحاء الذى هو من لوازم الإيجاز .

وانظر إلى معاوية بن بكر الباهلى وهو يقول لحماد الراوية :

بم تقدم النابغة ؟

قال : باكتفائك بالبيت الواحد من شعره ، لا بل بنصف البيت لا ، بل بربع بيت مثل :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

كل نصف بيت يغنيك عن صاحبه .

وقوله : (أى الرجال المهذب)

ربع بيت يغنيك عن غيره[2]

---

(١) طبقات فحول الشعراء الأستاذ محمود شاكر السفر الاول ص ٥٦ مطبعة المدنى .

(٢) الاغانى لابى الفرج ١/٧ ، ٨ الدار التونسية للنشر تحقيق لجنة من الأدباء

ومعروف أن قول النابغة هذا مقطع من بيت ذائع يتمثل الناس به . وهو .

ولست بمستبق أخا لاتلمه ٭ على شعث أى الرجال المهذب

والنابغة بهذا مجرب خبير عارف بأخلاق الناس ، فالإنسان معرض للخطأ ، والضعف الإنسانى يملأ حياة البشر ، والأخلاق فى الناس لابد من أن تسوء ، والسماء الصافية من شأنها أن يعكرها الضباب ، والصداقة الحميمة لاتخلو من الشوب والعصمة لاوجود لها بين الناس ، والجواد الأصيل يكبو ، وأفضل الفضلاء يقع منه مالا يحمد ، وعلى المرء أن يوطن النفس على احتمال طيش الشباب ، وإساءة الأصحاب ، وأولى الناس بقبل عفوك وحبك الأخلاء والأصفياء ، ولو فتشت عن الرجل المهذب التى تخلو منه العيوب فلن تجده ؛ لأنه غير موجود .

وهكذا استطاع الشاعر أن يحلق فى سماء عالية يجيد فيها الاعتذار ، ويكسب ود وعطف الممدوح وأن يحمل كل تلك المعانى بكثرتها ، ووفرتها وعمقها ، وغزارتها على أطراف اللفظ الوجيز الممتلىء ، وعلى جناح الحبك المتين القوى فى غير جفاف ، ولا نضوب ، ولا إخلال .

إننا حين نتحدث عن تاريخ النشأة للبلاغة العربية إنما نرصد شيئا من البذور الأولى التى نبتت فى حقل الرواة ، واللغويين ، والنحويين وحديثنا ليس حديثا عن قضايا ؛ لأنه لم يكن فى هذا التاريخ قضايا وأنها حين كانت فإنما كانت ثمرات لهذا الغرس الطيب الذى اتسع ، وامتد ، وتشعب ، وتلون . وأعقب شجرة البلاغة بفروعها الفارعة ، وظلالها الوارفة .

إن من أظهر ما اتجه إليه اللغويون وأبينه ، وأوضحه . إنما كان دراسة للغة عن طريق مراجعة النصوص ، ومدارستها ، والشعر على رأس كل ذلك مما أدى إلى المفاضلة بين شعر وشعر والموازنة بين الشعراء . فيما اتفقوا فيه من المعانى ، ومن هنا عمق البحث فى شعر الشعراء ، وفى ضروب القول . وظهر تقسيم الشعراء من جاهليين وإسلاميين إلى طبقات تلتقى كل طبقة منها عند مجموعة من الخصائص الفنية ، والسمات الأسلوبية ومعنى طبقة : أنهم نظراء ، وأنهم المتقدمون ، والمبرزون .

ولما كانت الميول ، والثقافات ، والأمزجة مختلفة ، كان الاختلاف فى تقدير الشعر . بل فى شعر الشاعر الواحد وفى منزلته . ومن هنا نعرف كيف تناثرت الملاحظات البلاغية ، وكيف تفرقت وتوزعت فى كل أقوالهم ومؤلفاتهم من أمثال : أبى عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وسيبويه وأبى عبيدة ، والفراء ؛ وابن قتيبة ، والمبرد ، وثعلب ؛ وغيرهم . وهكذا عنى اللغويون ببحث الألفاظ ، ودلالتها ، وإذا كانوا قد بحثوا دلالة الألفاظ باعتبار الوضع . فإن البلاغيين درسوا هذه الألفاظ فى ناحية من نواحى دراستهم من حيث خروجها على هذا الوضع ، والصلة بين معناها الذى خرجت إليه ، وبين معناها الذى وضعت له كما تعرض اللغويون لما فى النصوص من بلاغة عند شرحها .

وأنت تقرأ ماذكره ابن سلام[1] من نقد عيسى بن عمر للنابغة فى قوله :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١٦

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

إذ رفع النابغة (ناقع) والصواب النصب (ناقعا) على الحال وهو مأخذ بلاغى يظهر من ثناياه أن الشاعر قد وقع ضعف فى تأليف عبارته نشأ من رفعه لما حقه أن ينصب .

ومما يلتقى معه على نفس الطريق ماذكره ابن أبى إسحاق من نقد للفرزدق وكان متتبعا لأخطائه فى قوله :

وعض زمان يابن مروان ، لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجرف[1]

إذ رفع آخر البيت ، وكان الواجب النصب ، وأتعب أهل الإعراب فى التماس العلة ، وهز طريقة النظم التى يدركها الطبع السليم .

وليس بخاف أن واحدا من علوم البلاغة . وهو علم المعانى الذى يتتبع خواص وأحوال التراكيب ، قد ارتضع لبان النحو بمعناه الواسع ، ونشأ فى أحضانه .

وهذا ماأكده الإمام عبد القاهر فى حديثه عن النظم الذى بين أنه توخى معانى النحو ، وعن حديثه المستفيض عن مواقع (إنما) والحذف ، والذكر ، والتقديم والتأخير ، وأدوات الربط ، ومباحث الاستفهام ، ومتعلقات الفعل ، وقيوده . وغير ذلك مما تفيض به صفحات دلائل الإعجاز .

وحتى لايمتد بنا القول ، ولا يتشعب معنا الحديث سوف أشير إلى

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢١/١

شيء من البذور التى تناثرت عند الأئمة من أهل اللسان ، وسوف أكتفى بالاشارة ؛ لأن الحديث ذو شجون ، وهو واسع واسع واسع والاستقصاء ليس مجاله الآن .

وأختار سيبويه للبدء به ، لأنه الإمام الذى لمع نجمه فى كل أفق ، وسطعت شمسه فى كل مكان ، ولأن جهارة صيته قد ملأت كل زمان ، وعمت كل دنيا . فضلا على أن شهرة كتابه ، وذيوع اسمه قد جعلت منه العلم الفرد على رأس كل الكتب . بحيث إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إلى كتاب سيبويه دون غيره من الكتب .

فهو وحده الجدير بهذا الاسم ، الحقيق بأن يبتبوأ تلك المكانة ، الزعيم بأن القبلة التى يتوجه إليها الفاقهون والباحثون ومن الذائع . أن مؤلف الكتاب نفسه قد استعز به واستطال بل افتتن بما هو فيه فأسماه « قرآن النحو »(١) .

وناهيك عما لهذا الاسم من دلالة تجعل منه الأنشودة التى يتغنى بها كل فم ، والذكر الحسن الذى ينحدر على كل لسان ، واللحن المنسق الجميل الذى ينسكب فى كل أذن .

فإذا أضفنا إلى ذلك سبقه الزمنى ، ودلالته الواضحة على موضوعه لم نكن فى بدئنا به متحيزين أو مجاملين .

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى الاستاذ الدكتور عبد القادر حسين ص ٦٧

ونبدأ بموضوع الاستفهام ؛ لأنه علم شامخ فى النحو وفى البلاغة على حد سواء فهو على أفواه النحويين كما أنه على أفواه البلاغيين موضوعا للدرس ، ومحالا للبحث ، ورمزا لخلود العربية ، وشاهدا على خصوبتها ، ووثيقة تزكية لتفوقها وحيويتها .

وأنت حين تقف أمام هذا المصطلح عند إمام النحو سيبويه وتدير مباحثه فى ذهنك ، وتحاول النفاذ إلى عمقها ، وإلى كشف أسرارها ، وتجلية غوامضها تجدها فى الاستفهام كغيرها من مسائل الكتاب ، تروعك منها هذه الدقة الدقيقة فى الفهم ، وتأسرك تلك القدرة الخارقة على معالجة الأساليب ، ويدهشك هذا التأصيل للمسائل ، والاستنان لها ، وضبط أصولها ، وشمول الإحاطة بها . فى إدراك ، وصبر طويل ، وتحليل سليم .

وأنت حين تمضى معه لا بد أن تعبأ نفسك بطاقات هائلة من الصبر ، وأن تشحذ همتك بقوى جبارة من قوة الاحتمال ، وأن تمضى فى طريقك بهمة عالية ، وأن تتابع المسير على الرغم مما قد يقف فى سبيلك مما يرهق ويضنى . فليس سيبويه ممن يقرأ له لقتل الفراغ ، وليس ممن يتسلى بكتابه فى تثاؤب على المخادع ، أو مع التمدد على الأرائك . وأنت حين تقرأ فى فطنة قد يرشح منك الجبين ، وقد يكد منك الخاطر ، وقد يمل منك الذهن . ولكنك واجد فى النهاية متعة ولذة لا يجدها إلا من كافح ، وأعطى ، وتعب ونصب حتى وصل فى نهاية الشوط فائزا ظافرا . ففرح ، وسعد ، وهنىء ، وطرب . بعد أن تفتحت أمامه المغاليق ، وذل له الشامس ، ولان له العصى ، ودنا منه النافر البعيد .

اقرأ ما نقله صاحب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة مما فاض به الكتاب حيث يطالعك قول سيبويه فى باب أم وأو .

« تقول العرب :

أزيد جاءك أم عمرو ؟

أجاءك زيد أو عمر ؟ »(١)

حاول أن تدير التعبيرين فى خاطرك ، وأن تتعقب مواقع العناصر فى كل تعبير على حدة ، وطريقة ترتيبها ، ونظمها وحين تفعل ستجد :

فى التركيب الأول : همزة الاستفهام . وليها اسم . أعقبه فعل اتصل به ضمير المخاطب جاءت بعده « أم » إلخ .

فى التركيب الثانى زحزحت بعض الكلمات عن مواقعها ، و حدث تغيير تشكيل العبارة . إذ جاءت على نسق يختلف فى قليل من الترتيب عن النسق الأول .

فهمزة الاستفهام احتلت موقع الصدارة إذ أن هذا مكانها وليس لها إلا أن تكون كذلك وهى هنا قد سبقت الفعل المتصل بضمير المفعول « جاءك » وجاء الاسم « زيد » متأخرا عن الفعل مسبوقا به و « أو » حلت فى الثانى محل « أم » .

وحين تفض المثالين إلى عناصر ومفردات فستجدها فى الثانى كالأول باستثناء كلمة واحدة (أم) تغيرت إلى (أو) .

أعد النظر فى هذين المثالين واطرح على نفسك سؤالا :

---

(١) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ص ٤٥

هل يتماثل المعنيان فيكون الثانى عين الأول أم أن هناك فرقا نشأ عن الاختلاف فى نظم الكلمات ؟

لعل النظرة العجلى لا تجد ما يفترق به أحدهما عن الآخر ومن ثم ، تحكم بالتناظر بين المعنيين ، والتماثل بين هيئة المعنى فيهما معا .

لكن سيبويه يأخذ بيدك إلى غير هذا ، ويكشف لك عن اختلاف صورة المعنى فى كل عن الآخر ، وهو فى هذا يهتدى بمعطيات اللغة ، وبإمكاناتها ، فالكلمة وحدها لها معنى تكفلت اللغة بشرحه ، والكشف عنه . وللكلمات مجتمعة فى تراكيب على أنساق خاصة معنى واضح معين فإذا اختلف التركيب بين الكلمات فى تلك الأنساق ، تغيرت الدلالة قطعا ومالت ميلا آخر ؛ لأن ترتيب الكلمات فى التركيب إنما يأتى ثمرة لما يقوم بأنفسنا من معان نبغى توصيلها إلى المتلقين .

وعلى هذا الأساس يختلف المعنى فى قول العرب :

أزيد جاءك أم عمرو ؟ عن قولهم :

أجاءك زيد أو عمرو ؟

من أين جاء الاختلاف ؟

إن للعرب طريقتها فى التعبير عما يقوم بداخلها ، وفى المثال الأول ترى همزة الاستفهام قد سبقت الاسم الذى جاء تاليا لها ، وسابقا الفعل . وصورة الكلام : إنما تأتى على هذا النحو حين يكون الفعل قائما ثابتا محققا مقطوعا به ، ولكن الهواجس والظنون يدوران حول من أوجده من هو ؟

فالشك فى الفاعل لا فى شىء آخر . ومن ثم يكون التردد بينه وبين غيره إنك حين تتأمل تجد فعلا قد كان فهو ثابت لا محالة . ولكنك تسعى

لمعرفة من كونه ، إنك تجهل عينه فتطلب تعيينه ولذا صح أن تأتى (أم) وأن يذكر المعادل بعدها (عمرو) .

فالجواب يكون بأحد الاسمين (زيد) أو (عمرو) ويمتنع أن تجيء (نعم) أو (لا) فى الجواب .

وفى الثانى : أجاءك زيد أو عمر ؟

فالمعنى فيه : أجاءك أحدهما ؟

فالتردد فى الفعل من جهة ثبوته للفاعل ، أو انتفائه عنه ، إن غاية ماتسعى إليه ، ومنتهى ماتتغياه . أن تعرف حصول الفعل من الفاعل فيكون ثابتاً له ، أو عدم حصوله فيكون منفيا عنه ؛ لأن شكك متعلق بذلك ، وقائم به . ومن ثم : فإن الجواب عن مثل هذا لا يكون بالتعيين . وإنما يكون بالإيجاب أو بالسلب (بنعم) أو (بلا) .

وانظر إلى قول العرب :

١ - أتجلس أو تذهب أو تحدثنا ؟

٢ - أتجلس أم تذهب أم تحدثنا ؟

وأدر المثال الأول فى ذهنك تجد همزة الاستفهام وليها فعل مضارع قد عطف عليه فعل مضارع (بأو) وعطف على المعطوف فعل آخر .

إذن أنت ترى أن الهمزة قد وقع بعدها جملة فعلية ، ولم يتقدم على الفعل معمول من معمولاته ، فكأن السائل يسأل : هل يكون شيء من هذه الأشياء؟ فهو يريد أن يعرف حصول أى فعل من هذه الأفعال عن فاعله هل يكون أو لا يكون ؟

ومن ثم : يكون الجواب بالنفى أو بالإثبات (بنعم أو بلا) .

وفى المثال الثانى :

أتجلس أم تذهب أم تحدثنا ؟

لا مجال عندك للشك فى أن أحدا من هذه الأفعال يكون فهذا أمر لا أخذ فيه ولا عطاء . ولكنك لا تدرى ما هو فأنت تجهل عينه ، ومن هنا فأنت تريد أن تعرفة وتعينه وآية ذلك وجود (أم) وذكر المعادل بعدها ولذا يكون الجواب بالتعيين ، ولا يصح تميزه فلا مكان (للا أو نعم) .

وانظر إلى ما يقول العرب :

١ ـ أعمرو عندك أم زيد ؟

٢ - أعمرو عندك أم عندك زيد ؟

هل المعنى فى الثانى هو المعنى فى الأول أم أن هناك فرقا بينهما ؟

وعلى ضوء ما سبق يكون الخلاف فى المعنى من الجهارة والوضوح بحيث لا يحتاج إلى تفسير طويل :

ففى المثال الأول : المطلوب تعيين واحد منهما (زيد أو عمرو) فأم هنا منقطعة والهمزة للتصور وكأن السؤال : أيهما عندك ؟

أعمرو عندك أم عندك زيد ؟

ترى السائل يظن أن (عمرا) عنده فيسأل عنه . ثم يلاحقه نفس هذا الظن فى (زيد) فيسأل عنه .

وهنا تكون أم منقطعة ، تفيد الاضراب . فهى مثل : إنها لإبل أم شاء جرى كلامه على اليقين ثم أدركه الشك فأضرب وقال : بل أهى شاء .

وفى قول العرب :

هل زيد عندك أو عمرو ؟

لايصح فى مثل هذا السؤال أن تأتى (بأم) مكان (أو) وذلك ؛ لأن هل مختصة بطلب التصديق أى النسبة أى : ماينشأ عن ارتباط كلمة بأخرى من معنى تام . ومادامت لا تفيد غير التصديق فمن الخطأ أن يؤتى معها (بأم) ؛ لأن (أم) تقتضى التعيين فتكون لطلب التصور فى حين أن (هل) مختصة بالتصديق والمعنى فى السؤال على حد قولك :

هل عندك أحدهما ؟

بقى أن نشير إلى أن سيبويه يرى أن الأحسن[1] أن يلى المسئول عنه الهمزة :

تقول : أأكرمت زيداً أم أهنته ؟ فى الأول

وتقول : أزيداً أكرمته أم عمرا ؟ فى الثانى

وهذا هو الأحسن فى لغة العرب ، ومعنى أن هذا هو الأحسن أنه من الأحسن أن تقول :

ألقيت زيداً أم عمراً ؟

أوعندك زيد أم عمرو ؟

فإيلاء المسئول عنه الهمزة عند سيبويه فى الاستفهام يكون من الأحسن ومقابل الأحسن هو الحسن . ولذا صح عنده المثالان الأخيران ، وكانا من الحسن .

ولا شك أن أصول بحث التقديم فى الاستفهام قد ذكرت عند سيبويه

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى الأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى ص ١٠٢

وأن الامام عبد القاهر قد أفاد منه ، وتأثر فى ذلك وإن كان قد خالفه فى بعض المسائل . إذ أن المسئول عنه لابد أن يلى الهمزة عند عبد القاهر .

وإذا مضينا مع صاحب الكتاب فى حديثه عن الاستفهام . فإننا نراه يتحدث عن خروج الاستفهام عن أصل وضعه : وهو طلب العلم بشىء لم يكن معلوماً إلى معان أخرى يحددها السياق ، وتعين عليها القرائن . كالتوبيخ والتقرير ، والتعجب فمثال مايفيد الدستفهام التوبيخى مانص عليه من قوله :

أتميمياً مرة وقيسياً أخرى

فليس المقصود من الاستفهام طلب العلم ، ولكن المقصود ما تلمسه فيه من مر التوبيخ ، وشديد التأنيب على هذا التحول ، والتلون ، والتغير وليس يخفى أنه مع هذا التوبيخ يرى التهكم اللاذع ، والسخرية المرة والهزء الشديد.

اسمعوا إلى مايعلق به صاحب الكتاب فى سياق حديثه عن هذا المتغير المتلون : « وإنما هذا أنك رأيت رجلا فى حال تلون ، وتنقل . فقلت : أتميميا مرة وقيسيا أخرى .

فكأنك قلت : أتتحول تميميا مرة وقيسيا أخرى فأنت فى هذه الحال تعمل فى تثبيت هذا له ، وهو عندك فى تلون وتنقل وليس يسأله مستر شدا عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ، ويخبره عنه ، ولكنه وبخه بذلك »[1] .

فأنت ترى أن المعنى البلاغى للاستفهام قد جلاه سيبويه ، وأظهره

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/١٧٢ ط أولى الأميرية ١٣١٦هـ

حين نص عليه فى وضوح . وصراحة بأنه التوبيخ ومثله مما ذكره الرجل لإفادة هذا الغرض وتحقيقه قول الشاعر :

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك

وقد شرح هذا البيت على لسان الأعلم الشنتمرى فى ذيل الصفحة إذ قال : « والمعنى أتتحولون فى السلم أعيارا جفاء ، وفى الحرب نساء حيضا جبنا وضعفا »(١)

وكما تحدث عن الاستفهام الذى يفيد التوبيخ بما فيه من سخرية مرة ، وتهكم لاذع تراه يمثل بما يصلح أن يكون مثالا للدهشة والاستغراب ، والتعجب انظر إليه . وهو يأخذ بيدك ماضيا بك إلى هذا المعنى البلاغى وذلك فى قوله :

« فإنك تقول سبحان الله من هو ؟ وما هو ؟ فهذا استفهام فيه معنى التعجب »(٢) .

وانظر إليه وهو يشير إلى الاستفهام التقريرى من حمل المخاطب على الاعتراف والإقرار بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه حين يعقب على قول الشاعر :

* أطربا وأنت قنسرى *

---

(١) الكتاب ١/١٧٢ والعوارك : الحوائض واحدتها : عارك والاعيار : جمع عير : وهو الحمار

(٢) الكتاب ١/٣٠٢

« فقد علمت أنه قد طرب ولكنك قلت لتوبخه أو تقرره »[١]

ويشير صاحب الكتاب إلى الاستفهام الذى يكون للتنبيه على الضلال ويسوق شاهداً من القرآن الكريم ويؤيده بآخر مما يقول به الناس «ومثل ذلك قوله وتعالى « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » فقد علم النبى والمسلمون أن الله عز وجل لم يتخذ ولدا ، ولكنه جاء على حرف الاستفهام ليبصروا ضلالتهم ألا ترى أن الرجل يقول للرجل ، آلسعادة أحب إليك أم الشقاء . وقد علم أن السعادة أحب إليه من الشقاء وأن المسئول يقول : السعادة . ولكنه أراد أن يبصر صاحبه ، وأن يعلمه »[٢]

فسيبويه قد طوف حول مانبعث به أداة الاستفهام من معان غير أنه من الصعب الإمساك بها ، والقبض عليها ، فى تحديد صارم ، وضبط قاطع فما يأتى للتوبيخ قد تحس معه بنبرة التهكم ، والهمزه ، والسخرية بل إن الرجل قد أشار إلى مايفهم منه هذا حين عقب على قول الشاعر :

* أطربا وأنت قنسرى *

بما يفيد أن الاستفهام فيه يتردد بين معنى التوبيخ والتقرير وقد نقبل بما جاء فى قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » من أن الاستفهام هنا للتنبيه على ضلال إذ أنك تلمح فيه روح الرد والتكذيب والدفع لما كان يفترى به المشركون فى زعمهم من أن الله قد اتخذ الإناث

---

(١) الكتاب ١/٤٨٦

(٢) الكتاب ١/٤٧٤

لنفسه . واصفطاهم بالبنين مما يقتضى تفضيله لهم حين ميزهم بالنوع الأعلى (الذكور) واختص نفسه بالنوع الأدنى (الإناث)

ولكن الشاهد الذى انتزعه الرجل مما يقول به الناس لا نقبل به إلا من خلال مراجعة سياقه إذ أن هذا إنما يكون لرجل يأتى أفعال أهل الشقاء فيطرح عليه الاستفهام بصورته تلك : لتبكيته ، وتأنيبه ، وتنبيهه على خطئه وضلاله .

وعلى كل حال فأنت حين تراجع ما كتبه صاحب الكتاب فى باب الاستفهام لايشق عليك أن تعرف أن ما أثاره الرجل فى هذا الموضوع كان بمثابة الأساس الذى بنى عليه البلاغيون أحكامهم ، وآراءهم فى باب الاستفهام . وسلسلوا منه حديثهم عن (الهمزة) و (هل) فى إفاضة واتساع إذ أن (هل) تفيد التصديق . ومعروف أن الجملة إنما تتكون من عناصر ومفردات . وأن كل عنصر منها صالح لأن يسأل عنه . ومحاولة الاستفسار عن أى جزء منها منفردا على هذا النحو يسمى (تصورا) فإذا ما أريد إدراك علاقة شىء بآخر واستفسر عن ثبوته أو انتفائه عنه فإن ذلك يسمى (تصديقا) أى إدراك النسبة الناشئة من ارتباط مفرد بآخر بحيث ينشأ عن هذا الارتباط جملة تامة .

هذا وسيبويه يرى أن تقديم الاسم على الفعل بعد (هل) خلاف الأولى إذ أنها لها مزيد اختصاص بالأفعال .

ففى مثل قولك : هل زيد قام ؟ وهل زيدا ضربت ؟ يكون من خلاف الأولى عند ذوى اللسان تقديم الاسم هنا على سواء أكان المقدم

هو المسند إليه على الخبر الفعلى كما فى المثال الأول أو كان المقدم هو المفعول كما فى المثال الثانى والأولى أن يقال فى مثل ذلك هل قام زيد ؟ و هل ضربت زيدا ؟

وذلك لأن (هل) لطلب التصديق فالمستفهم عنه بها نسبة أى ثبوت أمر لأمر أو نفيه عنه . وتقديم الاسم هنا يفيد أن الشك فيه وأن النسبة معلومة فى حين أنه يستفهم عن حصول هذه النسبة أو عدم حصولها . إثباتها أو نفيها فيكون ذلك بمثابة تحصيل الحاصل . وذلك مما يجب أن يتنزه عنه كلام البليغ ونص كلام سيبويه : (واعلم أنه إذا اجتمع بعد حرف الاستفهام نحو (هل ، وكيف ، ومن) اسم وفعل . كان الفعل بأن يلى حرف الاستفهام أولى ؛ لأنها عندهم فى الأصل من الحروف التى يذكر بعدها الفعل)[1] .

وإنما عد الاتيان بالاسم بعد هل على خلاف الأولى لاحتمال أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام ، أو تقدير فعل محذوف يفسره المذكور[2]

على أن سيبويه يرى أن (هل) لا تتجاوز دلالتها الاستفهام الذى هو طلب المعرفة فهى له لاتتعداه إلى غيره كالتوبيخ أو الانكار أو التقرير فى حين يرى أن الهمزة تتمدد دلالتها وتتسع فتخرج عن أصل الاستفهام إلى ماسواه من التقرير ، والانكار ، والتوبيخ كما سبق (فهل ليست

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص٨٨

(٢) دلالات التراكيب ص٢٢١

بمنزلة ألف الاستفهام ؛ لأنك إذا قلت : هل تضرب زيدا ؟ فلا يكون أن تدعى الضرب واقع ، وقد تقول : أتضرب زيدا ؟ وأنت تدعى أن الضرب واقع . ومما يدال على أن الألف ليست بمنزلتها أنت تقول :

* أطربا وأنت قنسرى *

فقد علمت أنه قد طرب ، ولكن قلت لتوبخه ، أو تقرره ، ولا تقول هذا بعد هل »(١)

ونترك هذا النحوى الكبير لنلتقى بزميل له من أهل اللغة على نفس الطريق . فلنذهب إليه لنرى ماذا يقول يدفعنا الشوق ، وتقودنا اللهفة إلى الرجل الذى امتزج فيه علم الكوفة بعلم البصرة والتقيا فيه التقاءسعيدا مباركا . إذ نهل من النبع الصافى للنحو الكوفى على يد أستاذه الكسائى كما أطفأ ظمأه من النمير الرقراق المتدفق للنحو البصرى على يد شيخه حبيب بن يونس البصرى وبذلك ذاعت شهرته ، وعلا صيته ، وأصبح حتى صار يطلق عليه أمير المؤمنين فى النحو(٢)

ذلك أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء . وإنما ألمحنا إلى منزلة سيبويه ، ومكانة الفراء لنؤكد وثاقة ماعند النحويين من بلاغة كانت رافدا عذبا من الروافد التى أسهمت فى نشأة البحث البلاغى .

وسوف أختار من النماذج الكثيرة للملاحظات البلاغية التى توزعت

---

(١) انظر أثر النحاه فى البحث البلاغى ص ٨٩

(٢) « « « « ص ١٣١

فى مؤلفه الذائع المشهور (معانى القرآن) نموذجا يحدد رؤيته للاستفهام الذى يتخطى حقيقة معنـاه وهو طلب الفهم إلى مايفهم منه بمعونة القرائن ، وبنصرة السياق . من التقرير أو الانـكار ، أو التوبيخ ، أو التهديد .

وسوف أتوقف عند الأداة (هل) لأن للفراء فيها رأيا يخالف رأى صاحب الـكتاب .

فالفراء يرى أن جميع أدوات الاستفهام تتسع لـكل المعانى المجازية التى تتخطى الحقيقة إليها ، ولا تضيق بها ، وعلى رأس تلك الأدوات (هل) إذ تدل على التقرير والتوبيخ وغير ذلك . وهو بذلك يخالف رأى سيبويه الذى طالعناه منذ قليل ، والذى يرى فيه أنها لاتتجاوز الاستفهام الحقيقى أبدا إلى غـيره من التقرير ، أو التوبيخ ، أو خلافهما .

انظر إلى الفراء وهو يبصر فى الاستفهام (هل) معنى آخر غير الاستفهام الحقيقى فيقرره ، ويثبته ألا وهو الأمر التى أذاعت به أداة الاستفهام مما لايبعد عن طبيعة اللغـة ، ولا يخرج عن أنساقها التعبيرية .

والذى أعان على هذا الفهم ، وحدده . هو المقام الذى ورد فى سياقه ، وجاء من خلاله كما فى قوله تعالى : «فهل أنتم منتهون» حيث يعقب الرجل على النص بقوله : (استفهام ، وتأويله انتهوا أو لاترى أنك تقول للرجل هل أنت كاف عنا ؟ ومعناه : اكفف) وفى قوله تعالى : « هل أدلـكم

على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » يلمح الأمر من دلالة الاستفهام فيشير إليه حين فسر هل أدلكم بالأمر .

وفى غير (هل) من أدوات الاستفهام تراه يقول فى قوله تعالى : «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم » استفهام معناه : الأمر . وفى قوله تعالى : « أتخذناهم سخريا » يرى فى الاستفهام أنه يفيد التعجب والتوبيخ .

هذا ونختتم الحديث فى موضوعنا بالتنبيه على أن ماتناثر عبر مؤلفات النحويين ، واللغويين من ملاحظات ، وإشارات بلاغية كانت بمثابة البذور التى نبتت ، ونمت ثم استطالت ليتكون منها ومن غيرها البحث البلاغى . وعلى هذا النحو أخذت مسائل البلاغة طريقها إلى النمو ، والتكاثر ، والظهور على ألسنة المتأدبين ، والمتكلمين ، والمفسرين ، والرواة ، واللغويين يحفز الجميع إلى ذلك غيرة على الدين واللغة(١) .

ولايغيب عن بالنا ماذكره ياقوت الرومى فى معجم الأدباء عن راوية العرب وتلميذ يونس بن حبيب أبى عبيدة معمر بن المثنى .

وكيف ألف كتابه على أثر سؤال وجه إليه فى مجلس الفضل بن الربيع إذ طلب منه السائل : أن يفسر له التشبيه فى قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ؛ لأن الوعيد والإيعاد إنما يقع بما عرف مثله وهذا لم يعرف فقال أبو عبيدة : (إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم . أما سمعت

---

(١) ينظر أثر النحاة فى البحث البلاغى ص١٣٨ .

قول امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

« وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم ، أوعدوا به فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل، وعزمت من اليوم على أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه ومايحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز »[1]

ولم يفهم مؤلف المجاز من المجاز المعنى الذى فهمه البلاغيون وهو خروج الكلمة من معناها الوضعى إلى معنى آخر لم توضع له ، بشرط أن تكون بينهما علاقة تصحح هذا النقل ، وهذا الاستعمال .

وعليه فليس المجاز عنده ماهو فى مقابل الحقيقة عقلية أو لغوية بل أراد به ما كان معبرا وطريقا إلى التعبير .

ومن ثم فيكون قد أراد بمجاز الكلمة مدلولها الأوسع وهو الممر والطريق .

فمجاز القرآن عند أبى عبيدة هو طريق الوصول إلى فهم المعانى القرآنية باحتذاء أساليب العرب فى الكلام .

« يستوى فى ذلك أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التى تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة ، أو بالمرادف المفسر من

---

(١) معجم الأدباء ٧٩ / ١٥٩ دار الفكر للعربى الطبعة الثالثة ١٨٠٠ - ٢٤٠٠

المفردات ، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها ، أو طريق المجاز عند البلاغيين »[1] .

هذا ولأن صاحب المجاز قد ألفه حين طلب منه تفسير لمدى صحة التشبيه فى قوله تعالى : «طلعها كأنه رءوس الشياطين» فيكون مؤلفه أول مؤلف دون على أثر سؤال وجه فى مسألة خاصة بعلم البيان .

وإن كنا لا نستطيع بعد تحديد معنى المجاز فى كتابه أن ندعى أن مباحث الكتاب قد خلصت للبلاغة ، وتفردت بمسائلها .

والله أعلم ؟

الدكتور الوصيف هلال الوصيف

---

(١) البيان العربى الأستاذ الدكتور بدوى طبانة ص ٢٩ الطبعة السادسة

أهم مراجع البحث

الأغانى لأبى الفرج الجزء الحادى عشر .

أسرار البلاغة للامام عبد القاهر الجرجانى .

أثر النحاة فى البث البلاغى للأستاذ الدكتور عبد القادر حسين .

البلاغة القرآنية تفسير الزمخشرى للأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى .

البيان العربى للأستاذ الدكتور بدوى طبانه .

البلاغة تطور وتاريخ للأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

البلاغة العربية : تاريخها . مصادرها . مناهجها . للأستاذ الدكتور على عشرى زايد .

التركيب اللغوى للأدب للأستاذ الدكتور لطفى عبد البديع .

خطوات التفسير البيانى للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى .

دلالات التراكيب الأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى .

دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى .

سيبويه إمام النحاة للأستاذ الكبير على النجدى ناصف .

طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى .

الكتاب لسيبويه الجزء الأول .

مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية للأستاذ الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ .

معجم الأدباء لياقوت الجزء التاسع عشر .

معانى القرآن للفراء الجزء الأول .

النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة للأستاذ الكبير محمد أحمد عرفه .